بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 30 سبتمبر 2020

نماذج من تأريخ التأويل
في القرن الأول الهجري
التأويليّة العلويّة المُلْهَمة

رسول محمد رسول
باحث عراقي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2020
All rights reserved © 2020

«نحن معدن التأويل»[1]
(علي بن أبي طالب)

ملخص تنفيذي

يلقي هذا البحث الضوء على واحدة من تجارب التأويل في القرن الأول الهجري الباكر تلك هي تجربة خليفة المسلمين الرابع علي بن أبي طالب (23 ق هـ - 40 هـ) ضمن تجارب لم تكن بعيدة عن التجربة التأويلية التي حبّذها الرسول محمد (ص) في حينها؛ لكون النبي المصطفى استشرف ما سيكون عليه التأويل الذي سيخوضه علي بن أبي طالب، عندما قال حديثه الشريف بحضور صحابته الكرام: «إن منكم منْ يُقاتل على تأويل الْقُرْآن كما قاتلتُ على تنزيله».

ولعل عبارة «منكُم منْ يُقاتل على تأويل الْقُرْآن...» توحي بمصطلح «حروب التأويل»، واستشراف النبي الأكرم في هذا المجال، بدا أنه يدشن المعرفة التأويليّة كإمكان معرفي سيمشي على الأرض بين النّاس، وهو الاستشراف الذي سيتنبّه إليه علي بن أبي طالب، ويستعد لوقائعه وهو المُلهم في وجوده، لكن تجربته هي تجربة مُكنة إنسانية مزدانة بالإلهام، لأنه كثيراً ما كان يعوّل على مفاهيم تشتغل في بؤرة العقل والفهم والإدراك والحدْس والفطنة، وهو ما نجده في مُجمل أقوله وكتاباته وخطبه ورسائله ووصاياه، حيث إننا نجد لكلمة «تفسير»، وكذلك لكلمة «تأويل»، مكانتهما ومرجعياتهما في هذا المُجمل، بل وتجاربها التربوية ما يتعلّق بنجل خليفة المسلمين الرابع الحسن بن علي (3 هـ - 50 هـ).

يتوقف هذا البحث عند مُجريات «حروب التأويل»، كما أنه يصل إلى استنتاجات تخصّ هذه التجربة التي بدت أساسية في تجارب التأويل خلال القرن الأول الهجري.

1. النص الكامل لقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب هو: "والله، إنّا نحنُ أهل الذكر، نحنُ أهلُ العلم، نحن معدن التنزيل والتأويل". انظر: (أبو جعفر بن شهر آشوب: **مناقب آل أبي طالب**، تحقيق: د. يوسُف البقاعي، ج 4، ص 194، دار الأضواء، بيروت، ط 2، 1991).

مقدمة:

في صدر الدعوة الإسلامية، راح النبي محمَّد (ص) يستخدم كلمة «تأويل» كصنعة إنسيّة يتمنّى وجودها والاشتغال بها لدى صحابته وأهل بيته وبقية المسلمين، إذ تذكر لنا مصادر التأريخ بأن الرسول (ص) كان في جلسة مع صحابته، واستخدم كلمة تأويل؛ فـ «عن أبي سعيد الخُدري، قال: كنّا جلوساً ننتظر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فخرج إلينا وقد انقطع شِسع نعله، فرمى بها إلى عليٍّ (بن أبي طالب)، فقال: إن منكم منْ يُقاتل على تأويل الْقُرْآن كما قاتلتُ على تنزيله؛ فقال أبو بكر: أنا، قال الرسول: «لا»، قال عمر: أنا، فقال الرسول: «لا»، ولكن صاحب النعل». [2] ويقصد بصاحب النعل ابن عمّه، وزوج ابنته السيدة فاطمة الزهراء، علي بن أبي طالب.

والواقع، أن هذا الحديث بدا استشرافياً مستقبلياً جرت حصائله بالفعل تالياً، وفي أثناء خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بعد اغتيال سلفه الخليفة عثمان بن عفان سنة 35 هجرية (رض)، وظهور ما يمكن أن نطلق عليه تسمية «حروب التأويل»؛ فكان استشراف النبي (ص) في محلّه، كما أنه الاستشراف الذي دشنَ المعرفة التأويليّة كإمكان معرفي سيمشي على الأرض ليس كوجاهة وترف يمارسه الفقهاء والعُلماء بوصفه معرفة منقطعة الجذور عن واقع الإسلام والمسلمين، إنما كحقيقة موضوعية ومجرى حياة تحتاج الأمة الإسلامية إلى إعداد العدّة لهما بخلق جيل من المفسِّرين والمؤولين لكتاب الله ﴿الْقُرْآنَ﴾، لكي ينهضوا بمرام الدِّين كما يريده الله.

معرفة وإلهام

ربما كانت واقعة الحديث النبوي المبارك «منكم منْ يُقاتل على تأويل الْقُرْآن» قد استردّت في ذاكرة علي بن أبي طالب ما ينتظره في غده الذاتي والشخصي وغد الأمة الإسلامية، فراح يقلّب أهمية ذلك، خصوصاً أن هذا الحديث النبوي صدر عن رؤية نبويّة استشرافية؛ فالمستقبل ينتظر ابن أبي طالب في حروب قادمة حدَّدها الرسول محمَّد بأنها حروب التأويل.

وكان علي بن أبي طالب يعرف جيّداً أن النبي (ص) لا ينطق عن الهوى أو المزاج، إنما عن دراية نبوية موحى بها من الله؛ ولذلك يذكر علي بن أبي طالب مراراً أنه تعلَّم التأويل والتفسير من نبي الأمة؛ فعن «سليم بن قيس الهلالي، قال: سمعت أمير المؤمنين يقول: ما نزلت آية على رسول الله إلّا أقرأني إياها وأملاها علي، فأكتبها بخطي، **وعلَّمني تأويلها وتفسيرها**، وناسخها ومنسوخها، ومُحكمها ومتشابهها، ودعا

2. أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي: **خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب**، تحقيق وتخريج: أحمد ميرين البلوشي، ص 166، مكتبة المعلا، الكويت، 1986

الله لي أن يعلّمني فهمها وحفظها، فما نسيتُ آية من كتاب الله، ولا عِلم إملائه عليَّ، فكتبتهُ منذ دعا لي بما دعا، وما ترك شيئاً علَّمه الله من حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهي كان أو لا يكون من طاعة أو معصية إلّا علّمنيه وحفظته، فلم أنس منه حرفاً واحداً، ثمَّ وضع يده على صدري، ودعا الله أن يملأ قلبي علماً، **وفهماً**، وحكمة، ونوراً، لم أنس شيئاً، ولم يفتن شيء لم أكتبه، فقلتُ: يا رسول الله أوَ تخوَّفت على النسيان فيما بعد؟ فقال: لستُ أتخوّف عليكَ نسياناً ولا جهلاً، وقد أخبرني ربى أنه قد استجاب لي فيكَ، وفي شركائك الذين يكونون من بعدك...»[3].

وما تجدر الإشارة إليه هنا، هو أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب هو «الوحيد الذي كان يقول: «سلوني قبل أن تفقدوني؛ فوالذي فلق الحبة، وبرأ النّسمة، لو سألتموني عن أيةٍ آية، في ليلة أنزلت أو في نهار أنزلت، مكيّها ومدنيّها، وسفريّها وحضريّها، تاسخها ومنسوخها، ومُحكمها ومتشابهها، وتأويلها وتنزيلها، لأخبرتكمْ».[4]

يبدو لي أن الرسول محمَّد (ص) كان يجد في ابن عمّه علي بن أبي طالب عبقرية وموهبة إنسان يتمتع بـ «جهوزيّة إزاء الدِّين»[5]؛ جهوزيّة روحية ونفسية إيمانيّة، جهوزيّة قدرات متعدِّدة المُمكنات شديدة الوضوح يضيئها الإيمان بالخطاب الْقُرْآني وفهمه، والانخراط العبقري الموهوب في دروبه، وما يمكن أن يواجه في ميدان ترسيخ ذلك الخطاب، خصوصاً أن النبي (ص) كان يرسِّخ في شخصية علي بن أبي طالب الثقة بالنفس مدعومة من الله، حتى إنه وعندما كلّف علي بن أبي طالب بالذهاب إلى اليمن في مسائل القضاء يومَ كان قائلاً له: «إن الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك».[6]

يبدو هذا الكلام كما لو كان دعاء نبوياً لابن أبي طالب؛ فما تثبيت اللّسان غير سبك ما يلفظه المرء على صراط سليم، جزل الفصاحة يؤتي المعنى حقّه وسداده القاطع في الفصل بين الأمور المُختلف عليها، وهي دربة كان علي بن أبي طالب يتحصَّل عليها من نبي الأمة (ص)، حتى قوي عوده الفكري بين الناس بما يكرّس نضوج فاهمته وقدراته الإدراكية في طعن الشك انتصاراً لليقين؛ فهو من الصادقين إيمانا بالله، ومن الذين يشهدون بالحقيقة الإلهية، والله سبحانه يشهد لهم بذلك: {إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (الزخرف: 86).

---

3. محمَّد بن مسعود بن عياش السلمي الكوفي: **تفسير العياشي**، تصحيح وتحقيق وتعليق: هاشك الرسولي المحلاتي، ج 1، ص 14، موقع الحكمة للثقافة الإسلامية.

4. يرد في مقدّمة تحقيق كتاب: (الشريف المرتضى: **رسالة المُحكم والمُتشابه**، تحقيق وتقديم: عبد الحُسين الغريفي البهبهاني، ص 8، معهد البحوث الإسلامية، مشهد، 1428 هجرية). وحديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يذكره: (أبو جعفر بن شهر آشوب: **مناقب آل أبي طالب**، تحقيق: د. يوسُف البقاعي، ج 2، ص 47 - 48، دار الأضواء، بيروت، ط 2، 1991).

5. رودولف أوتو: **فكرة القُدسي**، ترجمة: جورج خوام البولسي، ص 205، دار المعارف الحكمية، بيروت، 2010

6. أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي: **خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب**، تحقيق وتخريج: أحمد ميرين البلوشي، ص 56، مكتبة المعلا، الكويت، 1986

وهنا، لا بد من الإشارة إلى «مسألة الفهم»؛ فعلي بن أبي طالب يستخدم مفردة (الفهم) كمصطلح في أقواله (انظر: نهج البلاغة)، ولعلّ ما قاله يوماً عندما سأله سائل: «هل عندكم عن رسول الله (ص) شيء بعد الْقُرْآن؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلّا **فهم** يؤتيه الله، عز وجل، رجلاً في الْقُرْآن».

وما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «الوحيد الذي كان يقول: «سلوني قبل أن تفقدوني؛ فوالذي فلق الحبة، وبرأ النّسمة، لو سألتموني عن أيةٍ آية، في ليلة أنزلت أو في نهار أنزلت، مكيّها ومدنيّها، وسفريّها وحضريّها، تاسخها ومنسوخها، ومُحكمها ومتشابهها، وتأويلها وتنزيلها، لأخبرتكمْ».[7]

ولهذا الكلام دلالاته التي تتعلّق بمَهمة إنسان التأويل بعد المرحلة النبويّة تلك المرحلة التي كان تأويل النبي (ص) لكتاب الله مُوحى إليه من ربّه. أما بعده، فلا وجود لتأويل موحى به من الله إلى أيّ أحد من الناس، إنما التأويل سينحصر كمُكنة لدى إنسان التفسير والتأويل أو المفسِّر والمؤوِّل، مُكنة قوامها (فهم) كتاب الله ﴿الْقُرْآن﴾ الذي هو أساس التفسير والتأويل من الناحية المعرفية أو الفينومينولوجية، فلا إنسان تفسير أو تأويل إلّا و(الفهم) أرضيّة تنبت فيها أداته ووسيلته وبضاعته الناجعة التي تعتمد على القدرة الفهميّة أو الفاهمة الإنسيّة، بما فيهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وبقية الصحابة الذين عُرفوا بالتفسير والتأويل وأهل بيت الرسول وعترته أئمة الهدى والبيان، وهم جميعهم من الإنس، وكُل التفسيرات والتأويلات التي قدّموها للناس في حياتهم عن المقدَّس الْقُرْآني، إنما تنطلق من الفاهمة التفسيرية والتأويليّة التي لهم مدعومة بتوفيق ربّاني، لكن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يستخدم تعبير «إلّا فهم يؤتيه الله»، ولا يقصد بذلك الفهم المُوحى به من الله للإنسان على غرار ما منحه لعترة الأنبياء الذين اصطفاهم وآخرهم الرسول محمَّد (ص)، إنما يقصد الإلهام والتوفيق الإلهي الذي خصصته لهم العناية الربانية بشرط توافر المُكنة الفاهمية الصادقة والعبقرية الفهمية المُلهِمة الساطعة نوراً لديهم بتوفيق رباني، ومنهم طبقة من المفسِّرين والمؤوِّلين الذين حباهم الله بمثل هذه العناية الرحيمة والمُكنة الفائقة فأكسب ذهنهم براعة نجيبة.

أما عبارته «رجلاً في الْقُرْآن»، فالمقصود بها نخبة أهل التفسير والتأويل لكتاب الله من المؤمنين به الصادقين مع ربهم ورسوله الأمين. وكان رسول الله (ص) قال عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، بحسب رواية ابن عبّاس: «أعطاني الله خمساً وأعطى علياً خمساً؛ أعطاني جوامع الكلم وأعطى علياً جوامع

7. يرد في مقدّمة تحقيق كتاب: (الشريف المرتضى: **رسالة المُحكم والمُتشابه**، تحقيق وتقديم: عبد الحُسين الغريفي البهبهاني، ص 8، معهد البحوث الإسلامية، مشهد، 1428 هجرية). وحديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يذكره: (أبو جعفر بن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، تحقيق: د. يوسُف البقاعي، ج 2، ص 47 - 48 دار الأضواء، بيروت، ط 2، 1991).

الكلام، وجعلني نبياً وجعله وصيّاً، وأعطاني الكوثر وأعطاه السلسبيل، وأعطاني الوحي وأعطاه **الإلهام**، وأسرى بي إليه (إلى الله) وفتح له أبواب السماوات والحُجب»[8].

وعن أنس بن مالك، قال النبي (ص) مخاطباً عليّاً: «أنت أخي، ووزيري، وخير من أخلف بعدي، تقضي ديني، وتُنجز وعدي، وتبيّن لهم ما اختلفوا فيه من بعدي، **وتعلّمهم من تأويل الْقُرْآَن** ما لم يعلموا، **وتجاهدهم على التأويل** كما جاهدتهم على التنزيل»[9]. وفي رواية أخرى ذكرها صاحب كتاب (الاحتجاج)، قال الرسول (ص): «قاتلتُ على تنزيل الْقُرْآَن وتقاتل على تأويل الْقُرْآَن»[10]. وفي رواية أخرى عن أنس: «قال النبي: عليٌ يعلّم الناس بعدي من تأويل الْقُرْآَن ما لا يعلمون»[11]. وقال كذلك: «قاتلتُ على تنزيل الْقُرْآَن وتُقاتل على تأويل الْقُرْآَن»[12]. ويقصد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

وبالفعل، كان علي بن أبي طالب «الوعاء الذي قدح فيه العِلم الإسلامي»[13]؛ فهو الذي «تربّى في حجر النبوّة، وحيي يتأمّلها، واستمع للرسول محمَّد (ص) في مواطن الوحي المتعدِّدة، يُلقى عليه الْقُرْآَن، وأصبح مرآة مجلوّة تتأمَّل مُجريات الحوادث، وينصقل فيه الحُكم والعبر، فيلقيه إلى الناس نوعاً من العِلم المباشر؛ يقذفه إليهم على صورة أخاذّة، فكبر القلب وعظمت المرآة المجلوّة»[14]. لم لا؟ فهو الذي قال عن صحبته مع أنوار النبوة المحمديّة: «ما في الْقُرْآَن آية إلّا وقد قرأتها على رسول الله وعلَّمني معناها»؟[15].

تكشف هذه النصوص عن جانب من التنوير النبوي الذي لجأ إليه الرسول محمَّد (ص) كاستراتيجية في بسط معالِم الدين الإسلامي، وهي استراتيجية تقوم على التبليغ والتبيين، وتربية أهل بيته، وصحابته، والنشء الجديد من المؤمنين برسالة الله ﴿الْقُرْآَن﴾.

8. أبو جعفر بن شهر آشوب: **مناقب آل أبي طالب**، تحقيق: د. يوسُف البقاعي، ج 3، ص 303 دار الأضواء، بيروت، ط 2، 1991

9. رضي الدين بن طاووس: **اليقين في إمرة أمير المؤمنين**، ص 13، المطبعة الحيدرية، النجف، 1950. جاء في كتاب (**الاحتجاج**) ما نصه: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيمّ نزلت، وأين نزلت، وعلى من نزلت؛ إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤلا». أبو منصور أحمد الطبرسي: **الاحتجاج**، ج 2، ص 177، انتشارات الشريف الرضي، قم، 13809 هجرية. وذكرها أيضاً أبي العبّاس الهيتمي في (**الصواعق المحرقة**)، لكنه ذكر عبارة «قلباً عاقلاً ولساناً ناطقا»، نسخة إلكترونية).

10. أبو منصور أحمد الطبرسي: **الاحتجاج**، ج 1، ص 174، انتشارات الشريف الرضي، قم، 1380 هجرية.

11. الحسكاني: **شواهد التنزيل لقواعد التفضيل**، حققه وعلق عليه: محمَّد باقر المحمود، ج 1، ص 29، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط 2، بيروت، 2010

12. أبو منصور أحمد الطبرسي: **الاحتجاج**: ج 1، ص 174، انتشارات الشريف الرضي، قم، 1380 هجرية.

13. د. علي سامي النشار: **التفكير الفلسفي في الإسلام**، ج 3، ص 93، دار المعارف، القاهرة، ط 7، 1978

14. د. علي سامي النشار: **التفكير الفلسفي في الإسلام**، ج 3، ص 93

15. الحسكاني: **شواهد التنزيل لقواعد التفضيل**، حققه وعلق عليه: محمَّد باقر المحمود، ج 1، ص 33، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط 2، بيروت، 2010

وبالتالي، تكشف عن قصديّة تربوية تنويريّة خصّها النبي محمَّد (ص) لابن عمّه وصهره أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، حتى قدّم له مفتاح مفاتيح المعرفة بكتاب الله، كذلك اعتراف عليّ نفسه بفضل الرسول محمَّد (ص) بأنه علَّمه تأويل وتفسير الآيات الْقُرْآنية؛ فما «نزلت آية على رسول الله إلّا أقرأنيها وأملاها عليَّ، فأكتُبها بخطي، وعلَّمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها»، وهو مؤشّر ثنائية يبدو واضح المعالِم في ذهنية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بين «التأويل» و«التفسير»، ونعلم أن ملفوظ «تفسير» يرد مرّة واحدة في المتن الْقُرْآني برمته (الفرقان: 33)، بينما يرد ملفوظ «تأويل» في سبعة عشر موضعاً في المتن نفسه، ومن ثم يكشف هذا النص عن تماميّة تعليم المتن الْقُرْآني من جانب الرسول محمَّد (ص) لابن عمّه وصهره علي بن أبي طالب، والذي دعا (بدوره) المؤمنين إلى «استنطاق»[16] كتاب الله ﴿الْقُرْآن﴾.

ولعلّ هذه التربية الْقُرْآنية ـ النبويّة التنويرية على صنعة التفسير والتأويل أصبحت معياراً للمقايسة في ذهنية بن أبي طالب؛ فعن «أبى عبدالرحمن السلمى، أن علياً مرَّ على قاضٍ، فقال: تعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا. فقال: هلكتَ وأهلكت، تأويل كُل حرف من الْقُرْآن على وجوه»[17].

تؤكِّد هذه الرواية، بأن التأويل ليس حكراً على نخبة النُخبة فقط، وأقصد أهل بيت الرسول وصحابته الأجلاء؛ بل النخبة القيادية في الدولة الإسلامية المعنية بقيادة الدولة الوليدة والفتيا، يومئذ، ومنها «القضاة»، ومن ثم يرد بن أبي طالب التأويل، من حيث وظيفته، إلى حروف الموجودية الْقُرْآنية، ليس فقط إلى الكلمات، ولا إلى الآيات، بل إلى الحروف، وهذا يعني أن صنعة التأويل لا تترك أيّة بينّة أو مكوّن في ﴿الْقُرْآن﴾ إلّا وتتناولها لما فيها من طاقة دلالية قابلة للتفسير والتأويل، وأن معرفة الناسخ والمنسوخ تدخل في آليات التأويل. كما أن التأويليّة التي تتصدّى لكتاب الله تستبطن احتمالاته الدلالية، ولعلّ هذا هو المؤدّى الدلالي لعبارة «تأويل كُل حرفٍ من الْقُرْآن على وجوه»، فنحن بصدد تخريج له مكانته في التأويليّة الْقُرْآنية يدلقه علي بن أبي طالب في مسار ما ارتأينا تسميته (التأويليّة العلوية المُلهمَة)، وهو ما ستبحثه لاحقاً. لم لا، وعلي بن أبي طالب خبر كتاب الله في البيت النبوي، حتى امتلك ناصية تفسيره وتأويله ليخوض في ملاحه متضلعاً بحظوة إلهام رباني وبمُكنة ذاتية إنسيّة في آن واحد، وهو الذي امتاز بفهم ظاهر كتاب الله وباطنه كما يؤكِّد تلميذه وصاحبه وابن عمّه عبد الله بن عبّاس الذي قال: «جُل ما تعلَّمت من التفسير من علي بن أبي طالب

16. جاء في الخطبة رقم 158 في (**نهج البلاغة**) ما نصه تحت عنوان (**النبي والْقُرْآن**): «أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الأُمَمِ وَانْتِقَاضٍ مِنَ الْمُبْرَمِ، فَجَاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَالنُّورِ الْمُقْتَدَى بِهِ، ذَلِكَ الْقُرْآنُ **فَاسْتَنْطِقُوهُ** وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ؛ أَلَا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ». (علي بن أبي طالب: **نهج البلاغة**، ص 223). سيكون اعتمادنا في هذا الكتاب على نشرة (**مركز الإشعاع الإسلامي**). (نسخة إلكترونية).

17. محمَّد بن مسعود بن عياش السلمي الكوفي: **تفسير العياشي**، تصحيح وتحقيق وتعليق: هاشك الرسولي المحلاتي، ج 1، ص 12، موقع الحكمة للثقافة الإسلامية.

وابن مسعود أن ﴿الْقُرْآن﴾ أنزل على سبعة أحرف ما منها إلّا وله ظهر وبطن، وأن علي بن أبي طالب علِمَ الظاهر والباطن».

وبذلك، إن صحّت هذه الرواية، فإننا سنكون بإزاء ثنائية **الظاهر والباطن** التي هي عليها آيات كتاب الله؛ فلا معنى قاموسي - معجمي للنص الْقُرْآني فقط؛ إنما نلقى فيه أيضاً المعنى الذي يغلفه المجاز، ونسترشد بقول علي بن أبي طالب نفسه الذي قال: «ما من آية قرآنية إلّا ولها ظاهر وباطن، وحدٌ ومطلع»[18].

ما هو مؤكَّد، أن هناك الكثير من مثل هذه الوقائع التي يدور التأويل في رحاها، ولكن ميزة علي بن أبي طالب أن له تراثاً مدوّناً وصل إلينا، وكان التأويل له مكانته فيه، ولذلك سننصرف هنا إلى (نهج البلاغة) الذي ضمَّ خطبه وكلامه ورسائله، سواء قبل خلافته للمسلمين أو في خلالها، ونعلم أنه كان استخلف «يوم الثلاثاء لسبع ليالٍ بقين من شهر ذي الحجّة/ حزيران سنة 35 هجرية»[19]؛ فما هي حياة ووقائع ودلالات التفسير والتأويل في تجربة علي بن أبي طالب؟

التفسير

هناك أدبيّات تعود إلى القرن الأول الهجري، ظهرت حتى سنة أربعين هجرية، كانت تعكس مستويات وصور ووقائع المُذاهنة التفسيرية التأويليّة التي ظهرت حينها، ومنها أدبيات خليفة المسلمين الرابع وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (تم اغتياله سنة 40 هجرية الموافق 661 ميلادية)[20]، وهي التي نقرأها اليوم باعتزاز معرفي وبفخر تراثي تحت عنوان (نهج البلاغة) التي تعد أيقونة لغوية بلاغية وأدبية جمالية باهرة المعطيات، فضلاً على خطابها المضموني الذي يتعلّق بالفكر الْقُرْآني والحياة السياسية حتى سنة 40 هجرية.

هذا السفر الثري وردت فيه كلمة «تأويل» مراراً ليس بدلالة الحدوث، ولا بدلالة تأويل الرؤيا، كما بدا ذلك واضحاً في المتن الْقُرْآني، إنما التأويل بمعنى الفهم الإنسي للخطاب الْقُرْآني عبر آليات التفسير والتأويل الذي يستبطن بقدر ما يُظهر فهماً للوجود والعالَم والحياة، إلّا أن (نهج البلاغة) ضمَّ أيضاً كلمة «تفسير»،

18. **تفسير الصافي**: ج 1، ص 31. **تفسير الميزان**: ج 3، ص 73. **فيض القدير**: ج 2، ص 500. ورد في: (عبد الحليم الجندي: **الإمام جعفر الصادق**، تحقيق: أحمد جاسم المالكي، ص 344، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب، طهران، 1382).

19. اليعقوبي: **تأريخ اليعقوبي**، ج ص، ص 178، دار صادر ودارب بيروت، بيروت، 1960

20. يروي اليعقوبي: "وقف ابن ملجم لعلي عند المسجد، وخرج علي في الغلس، فتبعه إوز كنّ في الدار، فتعلقن بثوبه، فقال: صوائح تتبعها نوائح، وأدخل رأسه من باب خوخة المسجد، وضربه ابن ملجم على رأسه؛ فسقط، وصاح: خذوه! فابتدره الناس، فجعل لا يقرب منه أحد إلا نفحه بسيفه، فبادر إليه قثم بن العبّاس، فاحتمله وضرب به الأرض، فصاح: يا علي نح عني كلبك؟ وأتي به إلى علي، فقال: ابن ملجم؟ قال: نعم! فقال علي: يا حسنُ شأنك بخصمك، فاشبع بطنه، وأشدد وثاقه، فإن متّ فألحقه بي أخاصمهُ عند ربي، وإن عشت فعفو أو قصاص، وأقام يومين، ومات ليلة الجمعة أول ليلة من العشر الأواخر من شهر رمضان سنة 40، ومن شهور العجم في كانون الآخر، وهو ابن ثلاث وستين سنة". اليعقوبي: **تاريخ اليعقوبي**، ج 2، ص 212

الذي كان ﴿الْقُرْآن﴾ قد استخدمها - مرَّة واحد - في كُل آياته؛ وذلك عندما قال سبحانه: {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ **تَفْسِيرًا**} (الفرقان: 33).

على أن الأمر ههنا يتعلَّق بكينونة ووجود ﴿الْقُرْآن﴾، وليس بآلية تفسيره أو تأويله، وهذا شأن له أهميته؛ فأولئك الذين يقولون إن التفسير والتأويل كلاهما طيّة واحدة لا بدّ لهم من التوقف بين دلالتي الكلمتين بوصفهما آليتان للفهم الإنساني؛ فلا توحيد بين رسميهما، ولا تطابق دلالي لهما في ضوء تجربة ﴿الْقُرْآن﴾[21]؛ فالتفسير في المتن الْقُرْآني هو ليس التأويل الذي أظهرته الآيات التي ضمّته بمظهر الهبة الإلهية والمُكنة الإنسيّة المُلهَمَة في بعض مناحيها.

قبل أن نتوجَّه إلى بيان استعمالات كلمة «تأويل» في (نهج البلاغة)، نتوقّف عند استعمالات كلمة «تفسير» في متن هذا النهج التي وردت في موضعين فقط؛ الأول في الخُطبة الشهيرة «خُطبة الأشباح»، التي حملت الرقم 91 في متن (نهج البلاغة)، أما الثاني ففي الخُطبة رقم 150، التي يومئ نصها إلى الملاحم ويصف فئة من أهل الضلال.

أولاً: انصرفت «خُطبة الأشباح» إلى تناول صفات الله ضمن واقعةِ سألٍ مُباشر جرت في (مسجد الكوفة)، عندما تقدَّم شخص وسأل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: «صِفْ لَنَا رَبَّنَا مِثْلَ مَا نَرَاهُ عِيَاناً لِنَزْدَادَ لَهُ حُبّاً وَبِهِ مَعْرِفَةً»[22]. فارتقى الإمام منبره، وقال: «فَانْظُرْ أَيُّهَا السَّائِلُ؛ فَمَا دَلَّكَ الْقُرْآن عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فائتَمَّ بِهِ، وَاسْتَضِئْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ، وَمَا كَلَّفَكَ الشَّيْطَانُ عِلْمَهُ مِمَّا لَيْسَ فِي الْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرْضُهُ، وَلَا فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ وَأَئِمَّةِ الْهُدَى أَثَرُهُ؛ فَكِلْ عِلْمَهُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُنْتَهَى حَقِّ اللَّهِ عَلَيْكَ. وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ اقْتِحَامِ السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ الْإِقْرَارُ بِجُمْلَةِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ، فَمَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْما»[23].

على الرغم من أن هذه الخُطبة جاءت ضمن سؤال أحد الأشخاص في (مسجد الكوفة)، إلّا أن الشريف الرضي[24] - جامع وشارح (نهج البلاغة) - يعتقدُ بأن المؤدّى الدلالي لهذه الخُطبة «يمكن أن يتعلّق

21. ذهبَ الدكتور نصر حامد أبو زيد إلى أن "التفرقة بين التفسير والتأويل تفرقة اصطلاحية متأخرة". انظر كتابه: (**فلسفة التأويل.. دراسة في تأويل القُرْآن عند محي الدين بن عربي**، ص 13، دار التنوير ودار الوحدة، بيروت، ط 1، 1983). ونحن نرى أن التفرقة موجودة في المتن القُرْآني نفسه، وشاهدنا ههنا مؤدّاها الدلالي فيه؛ فالتفسير شيء والتأويل شيء آخر لكنهما معاً يدخلان في باب الفهم؛ فلا تأويل من دون تفسير مثلما لا باطن من دون ظاهر في إطار التلقي الإنسي لآيات كتاب الله ﴿القُرْآن﴾.

22. **نهج البلاغة**، ص 124

23. **نهج البلاغة**، ص 125. «الإقرار» في سياق هذا التعريف للراسخين في العِلم هو «فاعل أغناهم».

24. محمَّد بن الحسين بن موسى الرضي العلوي الحسيني، ولد في بغداد سنة 359 وتوفي فيه سنة 406 هجرية، وكان نقيب الطالبيين فيها، وهو فقيه وشاعر.

بالحشْويّة[25] المانعون من تأويل الآيات الواردة في الصفات، القائلين بالجمود على الظواهر، ويمكن أن يتعلّق به مَنْ نفيَ النظر، وحرمته أيضاً».[26]

لكنّنا نلاحظ أيضاً، أن خليفة المسلمين الرابع يُذكّر بالمرجعيّات الأساسية في التفسير، وهي: ﴿الْقُرْآن﴾، وسنّة النبي (ص)، وفكر أئمة الهدى؛ ولعلَّ اللافت في هذه الخُطبة هو استعمال التعبير الْقُرْآني الأكثر اهتماماً في الفكر التأويلي الإسلامي، ألا وهو تعبير «**الراسخون في العِلم**»[27]، التي تتحدّث عنه الخُطبة بوضوح وبيان؛ إذ نقرأ: «وَاعْلَمْ أَنَّ **الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ - الله - عَنِ اقْتِحَامِ السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ الْإِقْرَارُ بِجُمْلَةِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ**، فَمَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفْهُمُ الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ **رُسُوخاً**، فَاقْتَصِرْ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا تُقَدِّرْ عَظَمَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ، هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي إِذَا ارْتَمَتِ الْأَوْهَامُ لِتُدْرِكَ مُنْقَطَعَ قُدْرَتِهِ، وَحَاوَلَ الْفِكْرُ الْمُبَرَّأُ مِنْ **خَطَرَاتِ الْوَسَاوِسِ** أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِي عَمِيقَاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ، وَتَوَلَّهَتِ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ لِتَجْرِيَ فِي كَيْفِيَّةِ صِفَاتِهِ، وَغَمَضَتْ مَدَاخِلُ الْعُقُولِ فِي حَيْثُ لَا تَبْلُغُهُ الصِّفَاتُ لِتَنَاوُلِ عِلْمِ ذَاتِهِ رَدَعَهَا، وَهِيَ تَجُوبُ مَهَاوِيَ سُدَفِ الْغُيُوبِ مُتَخَلِّصَةً إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ».[28]

إن إنسان هذه النخبة - الراسخون في العِلم - هو محط العناية الربّانية من دون أن يكون نبياً. وكان ابن عبّاس يقول عن نفسه إنه من «الراسخين في العِلم»، وهو ما سنتناوله لاحقاً، على أن الاعتراف من جانب الراسخين في العِلم أنفسهم بأنهم يجهلون تفسير الغيب المحجوب - كما يرى هذا النص - لهو دلالة على تواضعهم.

---

25. الحشْوية: اتجاه نصّاني - من النص - يتعصّب لسطح الدلالة القُرْآنية الظاهرة، ولا يحبذ أصحابه الأدلة العقلية، وهذا الميل إلى سطح الدلالة القُرْآنية، والتشبث بظاهرها كان قد أدّى إلى التشبيه والتجسيم، بمعنى أنهم يحملون اللفظ على ظاهر معناه أو حمل اللفظ على ظاهره، ومهما تكن الانتقادات الموجّه لهم، فإننا نعتبر هذا الاتجاه يمثل تأويلية ظاهرية تفسّر ﴿الْقُرْآن﴾ بظاهر لفظه، فهم يذاهنون النص المقروء ولا يذهبون إلى كشف مستوره وبواطنه حتى لتقف مذاهنتهم عند سطح معنى آيات ﴿الْقُرْآن﴾. لمزيد عن حجية ظواهر ﴿الْقُرْآن﴾، انظر: (أبو القاسم الخوئي: **البيان في تفسير القُرْآن**، ص 261 وما بعدها، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط 3، 1974).

26. ابن أبي الحديد: **شرح نهج البلاغة**، تحقيق: محمّد إبراهيم، مج 3، ج 5 - 6، ص 430، دار الكتاب العربي، بغداد، الأميرة للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 2007

27. ظهر في سورتين من سور (**القُرْآن**) هما: (**آل عمران**: 7)، و(**النساء**: 162).

28. قال علي بن أبي طالب في (الخطبة 144) ما نصه: "أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ **الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ** دُونَنا كَذِباً وَبَغْياً عَلَيْنَا؟ أَنْ رَفَعَنَا اللَّهُ وَوَضَعَهُمْ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ، وَأَدْخَلَنَا وَأَخْرَجَهُمْ، بِنَا يُسْتَعْطَى الْهُدَى، وَيُسْتَجْلَى الْعَمَى. إِنَّ الأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هَذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ لا تَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ، وَلا تَصْلُحُ الْوُلاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ». **نهج البلاغة**، ص 201. وهكذا نكون بصدد **أول تعريف** واضح للتعبير القُرْآني «**الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**» يظهر حتى سنة 40 هجرية، كذلك أول تشخيص للفئة الراسخة في العلم وهم آل بيت الرسول محمّد (ص).

ولا تتخذ دلالة ملفوظ «تفسير» ههنا تأويل الغيب، حتى إننا نفهم، من هذا التضمين، بأن سياق ظهور كلمة «تفسير» يستبطن نقاشاً عميقاً خاصاً ربما هو ما بلور رؤى مدرسة الأشاعرة[29]، وخطاب مدرسة المعتزلة[30] - بالطبع لاحقاً - كما يذهب الشريف الرضي إلى ذلك[31].

من دون أن نتغافل عن أن هذا النص يضمُّ التعريف أو شبه التعريف للنخبة التي يؤدِّي عنوانها في المتن الْقُرْآني، وهي «الراسخون في العِلم»، وربما يوحي هذا التعريف إلى أن هذه النخبة مُلهَمة من الله أو موهوبة بتحقيق درجة يقين الحقّ.

على أننا لا بد أن نتوقف عند تعبير «**وَلَا تُقَدِّرْ عَظَمَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ**»، وكذلك تعبير «**خَطَرَاتِ الْوَسَاوِسِ**»؛ فكلاهما يدعوننا إلى عدم توظيف طاقة العقل البشري أو الإنسي المحدودة في نسبيتها لاكتناه وتفسير وتأويل موجودية الله وحقيقة كتابه ﴿الْقُرْآن﴾؛ فالمرء، ومهما قوي عقله، سيبقى ضعيف الأداء لمعرفة الله المطلق، وكذلك تجنّب السقوط في فخ الهوى والأهواء أو خطرات الوساوس والشكوك لتفسير وتأويل كتاب الله، وهنا يسير أمير المؤمنين على بن أبي طالب على هدي سنّة الرسول محمَّد (ص) التي حذرت من تفسير وتأويل كتاب الله بمحدودية الناس الأهوائية أو الهوى أو شبق الذات وميول الرأي من دون الرجوع إلى كتاب الله نفسه، وسنّة نبيه الأمين الكريم، وأدبيات عترته

---

29. يرى محمَّد مجتهد شبستري أن بداية الأشعرية تعود إلى منحى "الاستماع والتسليم" (ص 90) للتنزيل القُرْآني والحديث النبوي الشريف، ولذلك "كان المسلمون يقتنعون بالمعنى الأولي لكل ما يطرق أسماعهم من نصوص قرآنية ونبويّة، وقد استمرت أجواء الاستماع والتسليم هذه لأهل الحديث حتى بعد وفاة الرسول (ص)، واستمرت أيضاً بالنسبة للأشاعرة في ما بعد" (ص 91). وبعد أن مال أبو الحسن الأشعري (260 - 324 هجرية) إلى الاعتزال، نراه يتحوَّل إلى نهجه الأشعري الذي كان يقضي بأن "الفهم الصحيح للقُرْآن هو ذلك الفهم البسيط الأولي الذي كان للمسلمين الأوائل، وكل فهم وقراءة مُستحدثة ظهرت بعد ذلك مثلت انحرافاً وزيغاً عن الصراط، ويقرر أن المعتزلة تأوَّلت القُرْآن وفق آرائها الخاصّة، وكذلك يقرر أن التأويل باطل، لعدم وجود ما يدعمه، ويبرهن عليه في القُرْآن، ولا في المأثور عن الرسول الأكرم (ص) والسلف الصالح" (ص 93). محمَّد مجتهد شبستري: **الهرمنيوطيقا الكتاب والسنة**، ترجمة: حيدر نجف، مراجعة: عبد الجبار الرفاعي، ص 95، دار التنوير، بيروت، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، 2013. وحول المدرسة الأشعرية في الفكر الإسلامية، انظر: (جلال محمَّد عبد الحميد موسى: **نشأة الأشعرية وتطورها**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982).

30. يقول الدكتور علي سامي النشار: "أما الطائفة التي تمثل الحياة الروحية في الإسلام، والتي ظهرت أيضاً في عهد علي بن أبي طالب، وخلال الفتنة بينه ومعاوية، فهي طائفة **المعتزلة**، ونحن نعلم أن المعتزلة نشأت عبادية لا عقلية في فريق من كبار الصحابة اعتزلوا الخلاف بين علي ومعاوية، وبقي بعضهم في منازله، وذهب البعض الثاني إلى الثغور، يتعبدون الله، ويقرؤون القُرْآن، ومن هذه الطائفة المعتزلة الزاهدة، خرجت، فيما بعد، فرقة المعتزلة، وقد اشتهرت، فيما بعد، بزهد أصحابها، وكان واصل بن عطاء (ت 131 هجرية)، وعمرو ابن عبيد (ت 143 أو 144 هجرية)، يُعرفان بالتزهد والتقشف». د. علي سامي النشار: **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، ج 3، ص 99، دار المعارف، ط 7، القاهرة، 1978. وللمزيد حول المعتزلة، انظر: (الشهرستاني: **الملل والنحل**، ج 1، ص 53، دار الندوة الجديدة، بيروت، طبعة سنة 1320 هجرية). ويقول محمَّد مجتهد شبستري: «يصرح الكثير من رموز الاعتزال أن التوحيد، والعدل، وصفات الذات، والأفعال، عند الله يمكن التوصل إليها بصورة مستقلة عن القُرْآن؛ لذلك لا يعتبر كتاب الله المصدر الأول والوحيد لهذه المعارف، وإنما المنشئ الرئيس لها هو **العقل**، والدين في مُعطياته الشرعية عامل تأكيد على العقل». محمَّد مجتهد شبستري: **الهرمنيوطيقا الكتاب والسنة**، ص 95. وتجدر الإشارة إلى أن التوحيد لدى المعتزلة ينفي عن الذات صفات الأجسام. وفحوى العدل أن الله لا يأمر إلا بالحسن، ولا ينهي إلا عن القبيح، والوعد والوعيد أو الثواب والعقاب ملازمان للفعل، وبشأن المنزلة بين المنزلتين، فإن المعتزلة ترى أن مُرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر؛ بل فاسق، وإن كان عقابه أقل من الكافر، والأصل الخامس يتعلّق بالأمر عن المعروف والنهي عن المنكر، وتخضع التأويليّة عند المعتزلة إلى ما يتطابق مع هذه الأصول الخمسة؛ فهم يؤوّلون الألفاظ ليفسّروا معاني الآيات طبقاً لأصولهم. انظر: (عبد الحليم الجندي: **الإمام جعفر الصادق**، تحقيق: أحمد جاسم المالكي، ص 347 - 348، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب، طهران، 1382). أما العقل فهو وسيلة المعتزلة الذهنية لمعرفة كتاب الله وفهمه، وقديما قال الشريف المرتضى عن توظيف العقل لدى المعتزلة: «لفظ العقل في القرآن يتضمَّن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة». الشريف المرتضى: **رسالة الاحتجاج بالقدر**، ج 2، ص 94. ذكره: : (د. محمَّد كامل أحمد: **مفهوم العقل في تفسير المعتزلة** للقرآن الكريم، ص 57، دار النهضة العربية، بيروت، 1983).

31. انظر: (ابن أبي الحديد: **شرح نهج البلاغة**، تحقيق: محمَّد إبراهيم، مج 3، ج 5 - 6، ص 432).

الأمينة على دين الله وكتابه وسنّة نبيه؛ قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: «أقول برأي، فإن وافق رأيي قضاء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فذاك، وإلّا فقضائي رذل فَسلٌ»[32]. وما يريد أن يقوله أمير المؤمنين في هذا التعبير هو إن الرأي غير المدعوم بالمأثور الْقُرْآني وتالياً النبوي لا قيمة له سوى قيمة ما هو رذل فَسل.

ثانياً: أما الخُطبة الأخرى «الرقم 150»، فجاء فيها: «أَخَذُوا يَمِيناً وَشِمَالًا ظَعْناً فِي مَسَالِكِ الْغَيِّ، وَتَرْكاً لِمَذَاهِبِ الرُّشْدِ، فَلَا تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوَ كَائِنٌ مُرْصَدٌ، وَلَا تَسْتَبْطِئُوا مَا يجيء بِهِ الْغَدُ؛ فَكَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ، وَمَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرِ غَدٍ، يَا قَوْمِ هَذَا إِبَّانُ وُرُودِ كُلِّ مَوْعُودٍ، وَدُنُوِّ مِنْ طَلْعَةِ مَا لَا تَعْرِفُونَ أَلَا وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مِنَّا يَسْرِي فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ، وَيَحْذُو فِيهَا عَلَى مِثَالِ الصَّالِحِينَ، لِيَحُلَّ فِيهَا رِبْقاً، وَيُعْتِقَ فِيهَا رِقّاً، وَيَصْدَعَ شَعْباً، وَيَشْعَبَ صَدْعاً فِي سُتْرَةٍ عَنِ النَّاسِ، لَا يُبْصِرُ الْقَائِفُ أَثَرَهُ وَلَوْ تَابَعَ نَظَرَهُ، ثُمَّ لَيُشْحَذَنَّ فِيهَا قَوْمٌ شَحْذَ الْقَيْنِ النَّصْلَ تُجْلَى بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ، وَيُرْمَى بِالتَّفْسِيرِ فِي مَسَامِعِهِمْ، وَيُغْبَقُونَ كَأْسَ الْحِكْمَةِ بَعْدَ الصَّبُوحِ فِي الضلال»[33].

ونلمح هنا دعوة إلى الوسطية بين تطرُّف الكفر ونقاء الإيمان من دون الارتماء، تساهلاً، في طائلة الكفر لكونه محرماً مرذولاً في الأديان التوحيديّة، ولكن بعض المحقّقين يعتقدون أن هذا الكلام يحيل على رؤية إماميّة تتعلّق بظهور منقذ/ منقذين للناس في الدنيا وما فيها من ظلالٍ جهول، وهؤلاء القوم الذين شُحذت عزائمهم ستُكشَف بصائرهم بـ «تلاوة الْقُرْآن، وإلهامهم **تأويله**، ومعرفة أسراره، ويُكشف لهم الغطاء، وتخلق المعارف في قلوبهم، ويُلهّمون فهم الغوامض والأسرار الباطنة»[34]، حتى «تفيض عليهم المعارف الربانيّة والأسرار الإلهية صباح مساء»[35] بما ينقذهم من شر الكفر والضياع في أتون جهنّم من زاوية دينية.

قد تذكرنا عبارة «يُرْمَى بِالتَّفْسِيرِ فِي مَسَامِعِهِمْ» بموضوعة الهبة الإلهية التي يختصها الله بعبدٍ مُصطفى من عباده، ليتخذ تعبير «التفسير» - في هذا السياق - دلالة مُفارقة، لكنَّ النص في كُليته التي له يتحدّث عن مستقبل ممّن سيؤتون مُكنة التفسير في غدٍ استشرافي قادم - بالطبع تال على زمانية نص هذه الخُطبة - على أن دلالة التفسير ههنا ستنصرف إلى تجربة روحية اصطفائية قد يجرّبها شخص مُمكن أن يكون في الغد الآتي كموجود إنسي مُفسّر بصنعة يختص بها.

---

32. ابن قتيبة: **تأويل مختلف الحديث**، تحقيق: محمَّد محي الدين الأصفر، ص 70، المكتب الإسلامي، بيروت، مؤسسة الإشراق، الدوحة، ط 2، 1999

33. علي بن أبي طالب: **نهج البلاغة**، ص 208، مركز الإشعاع الإسلامي. (نسخة إلكترونية).

34. ابن أبي الحديد: **شرح نهج البلاغة**، تحقيق: محمَّد إبراهيم، مج 5، ج 9 - 10، ص 85.

35. ابن أبي الحديد: **شرح نهج البلاغة**، مج 5، ج 9 - 10، ص 85.

التأويل

وإذا كان علي بن أبي طالب استخدم ملفوظ «تفسير» لمرتين، وفي خطبتين فقط، وربما غير ذلك في أحاديث غير منقولة إلينا، فإنه استخدم ملفوظ «تأويل» لمرّات عدّة كما ورد في متن خُطبه التي يتضمّنها (نهج البلاغة)، وهي:

(أ). في نصوص (نهج البلاغة)، ومنها الخطبة رقم 31، نقرأ وصيّة علي بن أبي طالب لولده الباكر الإمام الحسن بن علي (3 - 50 هجرية)، كتبها إليه في «حاضرين» عند انصرافه من صفين، وهي وصيّة طويلة، تعود، على الأغلب، إلى رمضان سنة 37 هجرية بعد انتهاء معركة صفين أو هكذا[36]، نختار منها القسم الذي ورد فيه ملفوظ «تأويل».

قال الإمام علي مخاطباً ولده الحسن: «فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمُرِ وَمُقْتَبَلُ الدَّهْرِ ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ، وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ، وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، وَتَأْوِيلِهِ، وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، وَأَحْكَامِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ لَا أُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ، ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِي الْتَبَسَ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَى أَمْرٍ لَا آمَنُ عَلَيْكَ بِهِ الْهَلَكَةَ، وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللَّهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ، وَأَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ»[37].

وهنا رسالة واضحة توجب أن «ينطلق الإنسان بوضع حدٍّ لكُل أشكال العبودية التي لا تدخر وسعاً بتعطيل تطوّر الإنسان روحياً؛ إذ لا تترك له فرصة المضي باكتشاف مؤهلاته في الحدْس والتفسير والشرح، وهذا هو غرض التعليم»[38] الذي عمل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على زفه إلى ولده الإمام الحسن في تلك المرحلة لكي «يتلمّس قوة الدِّين الأبدية، وحكمته الحقيقية، تلك التي تبعث اليقظة المقدَّسة في نفوس المؤمنين»[39]، وهو ما التمسه الإمام الحسن خير التماس في حياته الشريفة على طريق الهدي النبوي - العلوي كما تجلى ذلك في حياته التي اختار فيها طريق السلام وعدم معادات الناس حتى الذين تنازل لهم عن قيادة الأمة (الخلافة) بُعيد استشهاد والده علي بن أبي طالب، ومن ثم التآمر عليه لسحب بساط السلطة من

36. وهذا يعني أن الإمام الحسن كان في يومها ابن الرابعة والثلاثين من عمره أو هكذا!

37. علي بن أبي طالب: **نهج البلاغة**، ص 349، مركز الإشعاع الإسلامي. (نسخة إلكترونية).

38. فريدريك شلايرماخر: **عن الدين.. خطابات لمحتقريه من المثقفين**، ترجمة: أسامة الشحماني، مراجعة وتقديم: عبد الجبار الرفاعي، ص 139، دار التنوير، بيروت، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، 2017

39. فريدريك شلايرماخر: **عن الدين.. خطابات لمحتقريه من المثقفين**، ترجمة: أسامة الشحماني، مراجعة وتقديم: عبد الجبار الرفاعي، ص 146 دار التنوير، بيروت، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، 2017

تحت قدميه باغتصاب الخلافة، وقدَّموا له وعوداً بأن يخلف معاوية في حكم الأمة الإسلامية، لكنهم خذلوه؛ فبحسب تعبير برنابي روجرسون، «اعترف معاوية بأحقية تولي الحسن الحكم من بعده، إلّا أن هذا الوعد سرعان ما طواه النسيان»[40].

تنصرف دلالة ملفوظ «تأويل» في هذه الوصية إلى التربية الذهنية، ولنتذكّر دعاء الرسول لابن عبّاس بأن يعلّمه الله التفقه والحكمة والتأويل، ومَهمة من هذا النوع هي مناط الإمام علي، هذه المرّة، بـ «تَعْلِيمِ» ولده الحسن «كِتَابِ اللَّهِ وَتَأْوِيلِهِ»، وشرائع الْإِسلَامِ، وَأَحْكَامِهِ، وَحَلَالِهِ، وَحَرَامِهِ» لكي يُغذي إيمان وفاهمة (der Verstand) سبط البيت النبوي الإمام الحسن بالمُفاطنة والمُداهنة والحِذْسان التفسيري التأويلي؛ فمَن „اعْتَبَرَ أَبصَرَ، وَمَنْ أَبصَرَ فَهِمَ، ومَنْ فَهِمَ عَلِمَ".[41] ونستحضر ما قاله علي بن أبي طالب نفسه يوماً بأنه: «مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْجَهْلِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا حَتَّى أَخَذَ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يُعَلِّمُوا»[42]، ومَهمة التعليم في هذه التجربة لا بد أن تتخذ تكليفاً أبوياً وشرعياً من الناحية الدِّينية والإنسيّة.

ولا بد من الملاحظة أن تعليم الولد من جانب والده، وليس من طرف آخر مُفارق حتى يهبه التأويل، هذا التأويل الذي سيتخصّص بكتاب الله «كِتَابِ اللَّهِ وَتَأْوِيلِهِ»، وليس «الرؤيا» كما هي حال تجربة النبي يوسُف أو عِلمان نبوءة المستقبل كما هي تجربة الخضر مع النبي موسى، ثم إن تعبير «**أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ وَتَأْوِيلِهِ**» تبدو مدرسيّة، لكونها تفقيهيّة تنصرف إلى الدراية بـ «شرائع الْإِسلَامِ، وَأَحْكَامِهِ، وَحَلَالِهِ، وَحَرَامِهِ»، وهي بالتأكيد مدرسية (نبويّة - مُحمديّة)، تحتمل أن تكون علويّة (البيت العلوي)، خصوصاً أن العلاقة بين التعليم والتأويل تفتح أفقاً لأن يكون تأويل ﴿الْقُرْآن﴾ له دلالته العلويّة المخصوصة؛ وذلك من حيث لقف أسرار كتاب الله، تلك الدلالة التي لها مقامها الإماميّ (الإماميّة) لكون الحسن بن علي أول وريث للإمامة في الاستحقاق النبوي العلوي، بعد والده، أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب، وكلاهما من سلالة آل البيت النبوي الشريف.

إن صنعة التأويل، ومنها تأويل ﴿الْقُرْآن﴾، التي يريدها الأب لنجله الأكبر، تأتي كحماية للحسن من موجة الأهواء والآراء وموجات الشك والوساوس التي شاعت بعد وفاة النبي (ص)، ومقتل عثمان بن عفان، والتخريب الأموي الباحث عن السلطة بالسيف الفاتك؛ ولذلك حذّر الأب ولده الحسن من تلك الموجة التي صار الناس عبرها يرجعون إلى أهوائهم وميولهم وآرائهم في تأويل آيات كتاب الله، ما ولَّد التباسات مثيرة للجدل النقاش السجالي حتى يقول له: «أَشْفَقْتُ أَنْ **يَلْتَبِسَ** عَلَيْكَ مَا **اخْتَلَفَ** النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ

40. برنابي روجرسون: **ورثة محمد.. جذور الخلاف السني الشيعي**، ترجمة: د. عبد الرحمن الشيخ، تعليق: د. عبد المعطي بيومي ص 328، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2015

41. علي بن أبي طالب: **نهج البلاغة**، ص 506، مركز الإشعاع الإسلامي. (نسخة إلكترونية).

42. علي بن أبي طالب: **نهج البلاغة**، ص 559، مركز الإشعاع الإسلامي. (نسخة إلكترونية).

مِثْلَ الَّذِي الْتَبَسَ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَى أَمْرٍ لَا آمَنُ عَلَيْكَ بِهِ الْهَلَكَةَ».

لكأني بالإمام علي، وهو الوالد، ينهي ولده الحسن عن الخوض في غمار ودروب عِلم الكلام، وكما يقول الشريف الرضي، «حسبما يقتضيه ظاهر لفظه؛ ألا تراه، قال له: كنتُ عازماً على أن أعلِّمُك الْقُرْآن وتفسيره، والفقه وهو: المعرفة بأحكام الشريعة، ولا أجاوز بكَ إلى غيره، ثم خفت أن تدخل عليك **شُبهة** في أصول الدين، فيلتبس عليك في عقيدتكَ الأصلية ما التبسَ على غيرك من الناس؟»[43].

وهذا مؤشر واضح بأن موجة التأويل الذاتي الأهوائي كانت آخذة بالنمو؛ بل سائدة على نحو مخيف في تلك المرحلة، حتى إنها باتت تتناهى بالناس إلى الهلكّة بين المسلمين، ولا سيما تأويل ﴿الْقُرْآن﴾، وما نتج عنه من مُذاهنة تأويلية أهوائية قوامها الرأي المنقطع عن مرجعيات التفسير والتأويل الحقة، تلك التي صارت تنتشر في عصر الخلفاء، خصوصاً في عهدي الخليفتين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب.

وخلاصة سياق كلامنا هنا، أننا بصدد ولادة تأويليّة يمارسها إنسان هي تأويلية ﴿الْقُرْآن﴾، وهو المعنى الذي يؤدّيه دلالياً تعبير «أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ وَتَأْوِيلِهِ»، الذي ورد في متن هذه الدرس/ الوصية، لكنه التأويل الإمامي النقي الذي لا يُحرِّف متن وروسم ومعاني ودلالات الخطاب الْقُرْآني بغية تحقيق مصالح سياسية وشخصية منفعية آنية كما كان سائداً في تلك المرحلة، وكذلك لا ينحدر إلى الجدل الكلامي الذي يُخرج الإرادة التأويليّة من طبيعتها المتوازنة صوب فوضويتها التي تمس جوهر الدِّين الإسلامي والسنة النبوية.

(ب): أما الاستخدام الآخر لكلمة «تأويل» فنقرأه في النص رقم 55، في كتاب موجّه من علي بن أبي طالب إلى معاوية، جاء فيه: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا، وَابْتَلَى فِيهَا أَهْلَهَا لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَلَسْنَا لِلدُّنْيَا خُلِقْنَا، وَلَا بِالسَّعْيِ فِيهَا أُمِرْنَا، وَإِنَّمَا وُضِعْنَا فِيهَا لِنُبْتَلَى بِهَا، وَقَدِ ابْتَلَانِي اللَّهُ بِكَ، وَابْتَلَاكَ بِي، فَجَعَلَ أَحَدَنَا حُجَّةً عَلَى الْآخَرِ، فَعَدَوْتَ عَلَى طلب الدُّنْيَا **بِتَأْوِيلِ الْقُرْآن**، فَطَلَبْتَنِي بِمَا لَمْ تَجْنِ يَدِي، وَلَا لِسَانِي، وَعَصَيْتَهُ أَنْتَ، وَأَهْلُ الشَّامِ بِي، وَأَلَّبَ عَالِمُكُمْ جَاهِلَكُمْ، وَقَائِمُكُمْ قَاعِدَكُمْ، فَاتَّقِ اللَّهَ فِي نَفْسِكَ، وَنَازِعِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ، وَاصْرِفْ إِلَى الْآخِرَةِ وَجْهَكَ، فَهِيَ طَرِيقُنَا وَطَرِيقُكَ، وَاحْذَرْ أَنْ يُصِيبَكَ اللَّهُ مِنْهُ بِعَاجِلِ قَارِعَةٍ تَمَسُّ الْأَصْلَ، وَتَقْطَعُ الدَّابِرَ، فَإِنِّي أُولِي لَكَ بِاللَّهِ أَلِيَّةً غَيْرَ فَاجِرَةٍ لَئِنْ جَمَعَتْنِي وَإِيَّاكَ جَوَامِعُ الْأَقْدَارِ لَا أَزَالُ بِبَاحَتِكَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ»[44].

---

43. ابن أبي الحديد: **شرح نهج البلاغة**، تحقيق: محمَّد إبراهيم، مج 8، ج 15 - 16، ص 23. نلقى ههنا تعريفاً علوياً لمصطلح (الفقه) الذي هو: «**المعرفة بأحكام الشريعة**».

44. علي بن أبي طالب: **نهج البلاغة**، ص 446 - 447، مركز الإشعاع الإسلامي. (نسخة إلكترونية).

واضح أن نظرة أمير المؤمنين إلى شخصية معاوية أنها شخصية تجانب دين الحق وتنأى عنه تعاندا؛ فالهدف النهائي للدِّين، وكما يقول فريدريك شلايرماخر: «لا يعرف طريقاً أخرى غير تلك التي تنهض بمبادئه»[45]، وهذا ما لا يريده معاوية[46] ومنْ على هواه وأمثاله في تلك المرحلة؛ لأنهم لا يريدون للدِّين الإسلامي أن يمشي بين الناس كما يُعبِّر - الدِّين ذاته - عن نفسه الحقّة؛ لأنه وإياهم كانوا يريدون «نزع صفة القُدسيّة عن العالَم»، على حدِّ تعبير مرسيا إلياد[47].

لقد شاعت المُذاهنة التأويليّة لكتاب الله بين الناس على نحو كبير في ذلك العصر، وصار التأويل الذاتي الأهوائي مطعَّماً بعقلية منفعيّة تنضِّدها الأهواء الشخصية، وتبنيها المصالح السياسية لأصحاب هذه الأهواء، فهم يريدون التأويل مجرّداً من الرجوع إلى المأثور الْقُرْآني والنبوي، التأويل الذي يجانب المعنى الحق لرسالة الله في الحياة الدُّنيا والآخرة، هذا التأويل أصبح قائماً في ظل مطامع الأمويين وأمثالهم بالمُلك والسُّلطة الشاملة على الدِّين وإنسان الأمة.

ومن هؤلاء كان «معاوية»، الذي لا يملّ من تشويه سمعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب شخصياً حتى اتهمه بمقتل الخليفة عثمان بن عفان! فراح علي، وهو الخليفة، يخاطبه قائلاً: «فَغَدَوْتَ عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ»، وها هنا يظهر استعمال تعبير «تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ» جلي التوظيف، وهو مُذاهنة دالة على تجيير فهم الكتاب الإلهي ﴿الْقُرْآنِ﴾ سياسياً وشخصياً من طرف معاوية في حينها؛ يقول ابن أبي الحديد[48] في شرحه لعبارة «فغدوتَ على طلب الدنيا بتأويل الْقُرْآنِ»؛ أي: «تعدّيت وظلمت»، و«على» ها هنا متعلّقة بمحذوف دلّ الكلام تقديره مثابراً على طلب الدُّنيا أو مُصرّاً على طلب الدُّنيا، وتأويل ﴿الْقُرْآنِ﴾ [هو التأويل الذي] كان مُعاوية يموّه به على أهل الشام، فيقول لهم: أنا ولي عثمان، وقد قال الله تعالى في سورة الإسراء: 33: {وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا}»[49].

(ج): يرد ملفوظ «التأويل» في الخُطبة المرقمة 122 في (نهج البلاغة)، التي كانت مُرسَلَة من علي بن أبي طالب إلى الخوارج يوم لاقاهم عند معسكرهم، حتى قال لهم: «وَلَكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَاننا فِي

45. فريدريك شلايرماخر: **عن الدين.. خطابات لمحتقريه من المثقفين**، ترجمة: أسامة الشحماني، ص 121، دار التنوير، بيروت، ومركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، 2017

46. للمزيد عن المسكوت عنه في تأريخ معاوية وشخصيته، انظر كتاب: (هاشم حتاتة: **محمَّد ومعاوية.. التاريخ المجهول**، دار رؤية للنشر، القاهرة، 2017).

47. مرسيا إلياد: **المقدَّس والدنيوي.. رمزية الطقس والأسطورة**، ترجمة: نهاد خياطة، ص 15، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1978

48. عزّ الدّين أبو حامد عبدالحميد بن هبة الله بن محمّد بن محمّد بن حسين بن أبي الحديد، ولد في المدائن سنة 656 هجرية الموافق 1258 ميلادية، وهو شافعي معتزلي.

49. ابن أبي الحديد: **شرح نهج البلاغة**، مج 9، ج 17 - 18، ص 91

الْإِسْلَامِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ، وَالِاعْوِجَاجِ، وَالشُّبْهَةِ، **وَالتَّأْوِيلِ**، فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْلَةٍ يَلُمُّ اللَّهُ بِهَا شَعَثَنَا وَنَتَدَانَى بِهَا إِلَى الْبَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا رَغِبْنَا فِيهَا وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا».[50]

يستبطن هذا النص استفحال المُذاهنة التأويليّة التي كانت تتصاعد في المرحلة بعد وفاة الرسول (ص)، حتى صارت حالة الإسلام يتحكّم بها «الزَّيْغِ، وَالِاعْوِجَاجِ، وَالشُّبْهَةِ، وَالتَّأْوِيلِ»، وهي مُمارسات ذوات بشرية تتحكَّم بها فوضى الهوى والرأي والتأويل غير المنضبط لآيات الله في كتابه المقدَّس ما أدّت إلى قتال المسلمين فيما بينهم.

(د): يرد «التِأويل» أيضاً في الخُطبة 152 التي تحدَّثت عن صفات الله، جلّ جلاله، وصفات أئمة الدِّين، نقرأ فيها: «الحَمْدُ لِلَّهِ الدَّالِّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ، وَبِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ، وَاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شَبَهَ لَهُ لَا تَسْتَلِمُهُ الْمَشَاعِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ لِاقْتِرَانِ الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ، وَالْحَادِّ وَالْمَحْدُودِ، وَالرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ الْأَحَدِ، بِلَا تَأْوِيلِ عَدَدٍ، وَالْخَالِقِ لَا بِمَعْنَى حَرَكَةٍ وَنَصَبٍ، وَالسَّمِيعِ لَا بِأَدَاةٍ، وَالْبَصِيرِ لَا بِتَفْرِيقِ آلَةٍ، وَالشَّاهِدِ لَا بِمُمَاسَّةٍ، وَالْبَائِنِ لَا بِتَرَاخِي مَسَافَةٍ، وَالظَّاهِرِ لَا بِرُؤْيَةٍ، وَالْبَاطِنِ لَا بِلَطَافَةٍ بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا، وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَبَانَتِ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَهُ، وَمَنْ قَالَ: كَيْفَ فَقَدِ اسْتَوْصَفَهُ، وَمَنْ قَالَ: أَيْنَ فَقَدْ حَيَّزَهُ عَالِمٌ إِذْ لَا مَعْلُومٌ، وَرَبٌّ إِذْ لَا مَرْبُوبٌ، وَقَادِرٌ إِذْ لَا مَقْدُورٌ».[51]

حتى سنة 40 هجرية، تلك التي السنة تم خلالها اغتيال آخر الخلفاء الراشدين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، كان الجدل الكلامي حول كتاب الله قد أخذ مسارات نامية، وكانت تلك الصفحة من الجدل تجرب مُذاهنات تأويليّة نهض بها إنسان التأويل في القرن الأول الهجري، وهو ما تستبطنه هذه الخُطبة التي تنص على وجود «عِلم الكلام» في تلك الفترة، وفيها إثبات واحدية الله وأزليته، وأنه لا شبيه له، ولا تلامسه الحواس البشرية، وهو الذي لا يحجبه أيّ ساتر، فوجه الله في كُل مكان، ولا يحدّه وضع أو أين، ولا تحجبه الأمكنة والأزمنة، وهو أحد لا بمعنى الرقم واحد <1'، إنما بمعنى انعدام التجزّؤ، ولا ثانٍ له في الربوبيّة، فهو الواحد الأحد، وأنه الفاعل الذي لا تعب له، فهو لذاته القادر على كُل شيء، وهو سميع ليس بأداة حسيّة كالأذن، وهو حي لذاته بذاته، وشاهد لا بمماسّة حسية، إلى غير ذلك من جدليّات الكلاميين على قدر تعلقها بصفات ومُمكنات الله ذاته الإلهية.[52]

50. علي بن أبي طالب: **نهج البلاغة**، ص 179. تنصرف دلالته ملفوظ «**التأويل**» إلى ما هو سلبي لكونها قائمة على غير وجه حق.

51. علي بن أبي طالب: **نهج البلاغة**، ص 211 - 212، مركز الإشعاع الإسلامي. (نسخة إلكترونية).

52. للمزيد عن جدل الكلاميين في هذا الشأن، انظر: (ابن أبي الحديد: **شرح نهج البلاغة**، مج 5، ج 9 - 10، ص 97 - 99).

لقد وردت كلمة «تأويل» في هذه الخُطبة ضمن سياق حجاجي يتعلّق بما بلوره الفهم الحسي المباشر لمعاني الآيات الْقُرْآنية التي تتصدّى لوصف الله الخالق، ومنها من يفهم واحديّة الله الواحد الأحد بأنها كينونة رقميّة دالة على ما هو واحد، حيث يمكن مقارنته بالعدد الذي يليه، اثنين مثلاً، فقيمة المؤدّى الدلالي لاستخدام كلمة «تأويل» تأتي ههنا إلى معنى حجاجي المنحى، وهي تستبطن مُذاهنة تأويلية شائعة بين الناس، والرد على تأويل المؤوّلين في هذا الشأن إنما هو، في حدِّ ذاته، مُفاطنة كلامية - تأويلية يجربها أمير المؤمنين وخليفة المسلمين علي بن أبي طالب، ما يعني وجود التأويل كمعرفة، ووجود فئة من المؤوّلين لكتاب الله بمُكنة تأويلية تستند إلى فاهمة قرائية - تأويلية إنسيّة، ويصبح كتاب الله ﴿الْقُرْآن﴾ مؤوَّلاً في تجربتها الفهمية التأويليّة التي لا تذهب أبعد من معاني سطح المتن الْقُرْآني، وهو موضوع سينبِّه إليه الإمام الحسين تالياً ضمن معالجتنا للتأويلية الحُسينيّة.

وبذلك، يقدِّم لنا (نهج البلاغة) المُذاهنة التأويليّة، حتى سنة أربعين هجرية كمُكنة ذهنية إنسيّة كانت كليّة تِأويل المقدَّس الديني (الله + الْقُرْآن + الإنسان) محورها ومحط اهتمامها. ورغم أن هذا المقدَّس الدِّيني له أصلانية مفارقة (الله + الْقُرْآن)، ألّا أن المُذاهنات التأويليّة الإنسيّة بشأنه تبقى ذات أفق تاريخاني (Historical) مُعاش لكون الإنسان أحد أقطابها الفاعلين في إنتاج نصّها الذي لها وفق زمانية مُعينة هي زمانية البحث عن المعاني والدلالة الحقيقية للمقدَّس الديني أو ماهيّة الكلام الإلهي المقدَّس في ظل سلطة بزوغ - أو تواطؤ Univocité[53] - التلاعب الأهوائي على نمط المُذاهنة التأويليّة في تلك المرحلة، خصوصاً عندما تشتد الرغبات المنفعية الشخصية والأهوائية اللاهثة وراء السلطة بكُل أشكالها، السُّلطة المعرفية أو المادية، الأمر الذي يعني تحوّل التأويل من مُجرد شرط معرفي - ذهني لفهم معاني آيات كتاب الله ﴿الْقُرْآن﴾ يقوم على الإيمان النقي والشعور الإيماني الصادق بالدِّين إلى شرط وعي - سياسي يحكمه الهوى وتسيّره الرغبات بالسُّلطة الدُّنيوية، حتى صار التأويل سُلطة معرفية تكرس نوعاً من التماهي (Identification) بين متطلّبات وأهواء ورغبات الذات وكينونته المعرفية - كينونة التأويل - وهو ما توحي به سياقات استخدام أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب لمفردة "التأويل" كما تبدّت في (نهج البلاغة)، الأمر الذي يعني أن ما كان يجري - حتى سنة أربعين هجرية - في أرض الواقع يحبل بتجارب تأويلية كسُلطة معرفية تمثل وجهاً من رغبات السلطة السياسية، ليتداخل المعرفي مع السياسي فيها على نحو متماهٍ في محاولة منه لمُمارسة نوع من التبادل الدلالي (Inter - signification) المُنتج لحالة التأويل في تلك المرحلة بين التأويل كمعرفة والتأويل كأداة للسلطة.

53. التواطؤ يقابله باللغة الفرنسية تعبير (Univocité)، فاقتضى التنويه

تنتمي تجربة المُذاهنة التأويليّة، كما تبديها استعمالات (نهج البلاغة)، إلى مرحلة **ما قبل التأسيس** العلمي أو الحقلي للتأويل كعِلم قائم بنفسه من الناحية الحقلية ـ المعرفية؛ فالتأويل بوصفه مُذاهنة وحدْسان وفطنة إنسيّة كان يلتمس خطاه من دون أن يشتد عوده الحقلي كمعرفة متخصّصة في القرن الأول الهجري، ولكنّ تعبيرات من قبيل «أَبْتَدِئُكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ وَتَأْوِيلِهِ»، لاحت كفيلة بنمو ظاهرة المُذاهنة التأويليّة كمعرفة تعليمية (Pedagogy) مُكتسبة حقّقت مُعادلها الموضوعي في دعوة الرسول محمَّد (ص) لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب بأن يتحصَّل تقنيات (فن التأويل)، وهو مصطلح لم يظهر في القرن الأول الهجري، تلك التقنيات التي أفصح علي بن أبي طالب نفسه بأنه تعلّمها من الرسول محمَّد (ص)؛ فهو الذي قال: "وعلَّمني تأويلها وتفسيرها"، ومن غايات ذلك التعليم سُبل مواجهة حروب التأويل. وأيضاً دعاء الرسول النبي (ص) لابن عمّه عبد الله ابن عبّاس (رض) بأن يُعلِّمه الله التأويل.

لقد كان التقارب (Convergence) بين الرسول محمَّد (ص) وظاهرة التأويل كمعرفة تعليمية أساساً للتواصل عند أصحابه، عندما راح ابن عبّاس يعلّم التفسير والتأويل في مكّة للناس من حوله حتى صارت له مدرسة في هذا المجال هي (مدرسة مكّة)، التي كان من تلاميذها: سعيد بن جبير، ومُجاهد بن جبر، وعكرمة مولى ابن عبّاس، وطاووس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح. وكذلك عندما راح علي بن أبي طالب ينشئ مدرسته تحت هدي كتاب الله ونبوة محمد (ص) التي كان ابن عباس أحد تلاميذها، وهي (المدرسة العلويّة) التي اجتهدت ببناء المعرفة التأويليّة، فأخذ كلاهما يمضي صوب نسج المعرفة التأويليّة بوصفها عِلمانا وليداً في المجتمع الإسلامي الجديد.

ومن معالم المدرسة العلويّة في التأويل إجابته عن ماهيّة الإيمان، فقال: "الْإِيمَانُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ: عَلَى الصَّبْرِ، وَالْيَقِينِ، وَالْعَدْلِ، وَالْجِهَادِ.

1. **الصَّبْرُ** مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الشَّوْقِ، وَالشَّفَقِ، وَالزُّهْدِ، وَالتَّرَقُّبِ؛ فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا اسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ، وَإِنِ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ.

2. **الْيَقِينُ** مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى تَبْصِرَةِ الْفِطْنَةِ، وَتَأَوُّلِ الْحِكْمَةِ، وَمَوْعِظَةِ الْعِبْرَةِ، وَسُنَّةِ الْأَوَّلِينَ؛ فَمَنْ تَبَصَّرَ فِي الْفِطْنَةِ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ، وَمَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ عَرَفَ الْعِبْرَةَ، وَمَنْ عَرَفَ الْعِبْرَةَ فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِينَ.

3. الْعَدْلُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى غَائِصِ الْفَهْمِ، وَغَوْرِ الْعِلْمِ، وَزُهْرَةِ الْحُكْمِ، وَرَسَاخَةِ الْحِلْمِ؛ فَمَنْ **فَهِمَ** عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ، وَمَنْ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرَائِعِ الْحُكْمِ، وَمَنْ حَلُمَ لَمْ يُفَرِّطْ فِي أَمْرِهِ وَعَاشَ فِي النَّاسِ حَمِيدًا.

4. الْجِهَادُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنكَرِ، وَالصِّدقِ فِي الْمَوَاطِنِ، وَشَنَآنِ الفَاسِقِينَ؛ فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظُهُورَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أُنُوفَ الْكَافِرِينَ، وَمَنْ صَدَقَ فِي الْمَوَاطِنِ قَضَى مَا عَلَيْهِ، وَمَنْ شَنِئَ الْفَاسِقِينَ وَغَضِبَ لِلَّهِ غَضِبَ اللَّهُ لَهُ وَأَرْضَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[54].

يبدو حديث علي بن أبي طالب عن الإيمان، والمقصود به الإيمان بالله، الذي يفهمه بأنه يتقوَّم بأربع دعائم هي: الصَّبْرِ، وَالْيَقِينِ، وَالْعَدْلِ، وَالْجِهَادِ. والمفهومان المتعلَّقان بنظرية المعرفة في إطارها الديني هما: اليَقِين والعَدْل. واليقين مفهوم فلسفي، فضلاً عن حمولته الدلالية الدِّينية، لكن على بن أبي طالب ضخ فيه روح المعرفة الإنسيّة، عندما شعَّب الأمر إلى: «**تَبْصِرَةِ الْفِطْنَةِ، وَتَأَوُّلِ الْحِكْمَةِ، وَمَوْعِظَةِ الْعِبْرَةِ، وَسُنَّةِ الْأَوَّلِينَ**».

الفطنة هي للإنسان لما له من طاقة ذهنية اصطفاها الخالق له دونه غيره من الخلائق، والتأويل خاصّة ذهنية للإنسان دون غيره من خلائق الوجود، والعبرة والاعتبار هما دُربة للإنسان. أما سُنّة الأولين، فهي مرجعية غالباً ما يُذكِّر ﴿الْقُرْآن﴾ بها، وهي في هذا السياق: سُنّة الأنبياء، ومنهم الرسول محمَّد بن عبد الله (ص).

وهنا أريد أن أقف عند أنطولوجية النص نفسه، فهناك رواية له أخرى وردت في كتاب (دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم)[55] بتغيرات طفيفة، لنقرأ:

«الْيَقِينُ مِنْ ذلك على أربعة أركان: عَلَى **تَبْصِرَةِ الْفِطْنَةِ**، وَمَوْعِظَةِ الْعِبْرَةِ، وتأويل الْحِكْمَةِ، وَسُنَّةِ الْأَوَّلِينَ؛ **فَمَنْ أَبْصَرَ الْفِطْنَةِ تأول الْحِكْمَةُ**، وَمَنْ تأول الْحِكْمَةُ تبين الْعِبْرَةَ، وَمَنْ تبين الْعِبْرَةَ عرف السُنّة، فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِينَ إلى التي هي أقوم».[56]

54. علي بن أبي طالب: **نهج البلاغة**، ص 473، مركز الإشعاع الإسلامي. (نسخة إلكترونية).

55. القاضي محمَّد بن سلامة القضاعي: دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، تحرير وترجمة إلى الإنجليزية: طاهرة كتب الدين، مطبوعات جامعة نيويورك، 2013. باللغتين العربية والإنجليزية. وهناك طبعة قديمة من هذا الكتاب ضمّت النص العربي فقط، وصدرت عن المكتبة الأزهرية بالقاهرة من دون تأريخ.

56. القضاعي: **دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب**، ص 134 - 136. مطبوعات جامعة نيويورك، 2013

أما النص نفسه في طبعة المكتبة الأزهرية، فهو: «الْيَقِينُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ أركان: عَلَى تَبْصِرَةِ الْفِطْنَةِ، وَمَوْعِظَةِ الْعِبْرَةِ، وَتَأَوُّلِ الْحِكْمَةِ بتبين العبرة، ومن تبين العبرة عرف السُنّة، فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِينَ، فاهتدى إلى التي هي أقوم».[57]

مهما تعدَّدت اختلافات النص، نجد أنفسنا بإزاء أنطولوجية نصية تتضمّن مفردة «تأويل» التي يصوّر علي بن أبي طالب دلالتها الذهنية والعقلية والحدْسية والفطنية كمُكنة للإنسان في إطار رؤيته لتحصيل اليقين المعرفي بشأن الله كما يتجلى في حكمته الإلهية وعلاقة الإنسان بذلك، وهو نص نادر أجزل وفرته أمير المؤمنين وخليفة المسلمين الرابع، حتى اغتياله سنة 40 هجرية؛ فالإمام يُخاطب الإنسان فيما له من قدرات معرفية قوامها إقباله على فطنة (Sagacity) الحكمة بعد لقفها بقدرة ذهنية قوامها الإبصار (Perception) الإنسي الذي هو خاصّة للإنسان، لتأتي ملفوظات معرفية عدّة، ومنها ملفوظ الفهم بمعنى الفطنة الاستيعابية (Comprehension)، وكُل هذه المفاهيم/ الأدوات هي في صميم نظرية المعرفة الإنسيّة، جلية في سياق هذا النص الذي يربط الفهم المعمّق بالعِلم؛ "فمن **فَهِمَ** عَلِمَ **غَوْرَ الْعِلْمِ**»، ما يعني أن الفهم شرط المعرفة، وبالتالي يربط ذلك بما يُحمد الإنسان عليه في حياته أو كما يقول: «عَاشَ فِي النَّاسِ حَمِيدا»، فعبر غَوْرَ الْعِلْمِ بالفطنة والاستبصار والفهم لتأويل الحكمة الإلهية (Interpret God's wisdom)[58]، يضمن الإنسان مؤدّى مقام رفيع له في حياته بين الناس والرضى الإلهي في الآخرة؛ فالتأويل ههنا يمثل جزءا من نظرية المعرفة العلويّة، وخاصّة إنسيّة لا بدّ منها كشرط معرفي ووجودي في حياة الإنسان؛ كيف لا والرسول محمَّد (ص) خاطب في يوم ما علي بن أبي طالب قائلاً له: «يا علي: ستُقاتلُ على التأويل كما قاتلتُ على التنزيل»، فكان جديراً بفتى الإسلام هذا أن يكون أهلاً للدفاع عن كتاب الله وشريعته ودولة الإسلام بالطرائق التي كان يراها كفيلة بذلك، ومنها آليات العلم والمعرفة، وفي ضمنها آليات التأويل والتفسير حتى خاض وقائع حروب التأويل. فكيف كانَ ذلك؟

حُروب التأويل

«عن أبي سعيد الخُدري، قال: قال رسول الله: إن منكم منْ يقاتل على تأويل الْقُرْآن كما قتلتُ على تنزيله. فقال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: «لا». قال عمر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: «لا»، ولكنّه **خاصف** النعل. فابتدرنا ننظر، فإذا هو عليّ **يخصف** نعل رسول الله»[59].

57. القضاعي: **دستور معالم الحكم**، ص 118. مطبوعات جامعة نيويورك، 2013.

58. ترجمت (طاهرة كتب الدين) تعبير "Interpret God's wisdom" إلى "**تأويل الحكمة**». راجع بشأن المقابل الإنجليزي لهذه المفاهيم: (القاضي القضاعي: **دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب**، ص 134، مطبوعات جامعة نيويورك، 2013).

59. أبو جعفر شهر آشوب: **مناقب آل أبي طالب**، ج 3، ص 55. دار الأضواء، بيروت، ط 2، 1991

وفي رواية أخرى قريبة:

«عن أبي سعيد الخُدري، قال: «كنّا جلوساً ننتظر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فخرج إلينا قد انقطع شِسع نعله، فرمى بها إلى عليّ، فقال: إن منكم منْ يُقاتل على تأويل الْقُرْآن كما قاتلتُ على تنزيله. فقال أبو بكر: أنا، قال الرسول: «لا»، فقال عمر: أنا، فقال الرسول: «لا»، ولكن صاحب النعل»[60].

هنَّ ثلاث حروب يمكن أن نطلق عليها حروب التأويل، ربما بدأت بعد اغتيال خليفة المسلمين الثالث عثمان بن عفان، فراح الجيش الناكث (Betrayal army) يتهم علي بن أبي طالب بذلك الاغتيال زوراً، بينما كان طلحة بن عبيد الله (28 قبل الهجرة - 34 هجرية)، والزبير بن العوّام (28 قبل الهجرة - 36 هجرية)، هما اللذان دبّرا مقتل الخليفة الثالث - بحسب المصادر التأريخية - إذ كتبَ علي بن أبي طالب إلى أهل الكوفة، وهو أمير المؤمنين، قائلاً: "يطلبون بدم هُم سفكوه، وعرض هُم شتموه، وحرمة انتهكوها"[61]، وهو الذي قال يوما: «أَكْثَرُ مَصَارِعِ الْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ الْمَطَامِعِ»[62]. وفي الكوفة قال عمّار بن ياسر (56 قبل الهجرة - 37 هجرية)، يومَ كان مُرسَلاً من الخليفة الرابع: «كان طلحة والزبير أول من طعن عليه - يقصد طعنهما في الخليفة عثمان - وأول من أمر بقتله، وسعى في دمه، فلما قُتل بايعا علياً طوعاً واختيارا»[63].

لا توجد، في حدود اطلاعنا، خاصّة تعريفية تحدِّد الملفوظ الاصطلاحي «حروب التأويل»، لكن التعبير النبوي «يا علي: ستُقاتل على التأويل كما قاتلتُ على التنزيل»، تمكّننا من صياغة مفهوم «القتل على التأويل»، لكننا سنقع في فخ العُنف اللفظي والدلالي معاً، وتلك صياغة لا تروق لنا، من دون أن ننفي أن مُمارسات تأويلية كثيرة في التأريخ أدّت إلى حروب دموية جمّة؛ فسوء استخدام الفاهمة الإنسيّة وسوء الفهم الإنسي ضمنها ينحدران بالإنسان، غالباً، إلى مستوى بشريته (قبل - إنسيّة) التي تشي بالعُطل الفاهمي؛ أي إلى بشرية غريزية تستفحل فيها الرغبة بالعُنف، وتصبح اللغة الوسيط العُنفي وأحياناً الدموي هائج المآل لكونها أداة التواصل مع الأغيار، وقضية سوء الفهم هي قضية رئيسة في الفكر الإنساني قال فيها العلماء والفلاسفة قولهما في شؤونها.

60. أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي: **خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب**، تحقيق وتخريج: أحمد ميرين البلوشي، ص 166، مكتبة المعلا، الكويت، 1986

61. الشيخ المفيد: **الجمل**، ص 140، مكتبة الداوري، قم (د. ت)، (نسخة إلكترونية). ثم قال في خطبة له: «وإنَّهُمْ ليطلبون حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ»، الخطبة: 22، ص 63. وكذلك انظر: (علي بن أبي طالب: **نهج البلاغة**: الخطبة رقم: 137، ص 194، مطبوعات جامعة نيويورك، 2013).

62. علي بن أبي طالب: **نهج البلاغة**: ص 507، مطبوعات جامعة نيويورك، 2013

63. الحسين أحمد السيد: **الإمام علي وحروب التأويل**، ج 1، ص 595، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر، بيروت، 2009

ومع ذلك، نجد تعبير «حروب التأويل» شائعاً بين الناس، بمعنى أن توجّهات التأويل أدّت إلى حروب دموية في ميدان التقاتل البشري، بينما كانت الحروب هي ذاتها وظّفت التأويل كآلية لتبيين موقف المتنازعين.

ولهذا، سنذهب إلى بعض الحوارات التي كانت تدخل في مبرّرات الحروب التي جرت، يومَ كانت الناس تسأل عن أسباب ما كان يجري، ومن تلك الأسئلة ما كانت تُطرح على الخليفة الرابع علي بن أبي طالب، الذي كان يستعين بالمتن الْقُرْآني ليكون حَكَماً بينه والناس، وبينه والذين يأخذهم السأل، وهي الاستعانة/ السأل التي تعبّر عن مُذاهنات تأويلية ظهرت في ميدان ما كان يجري فتصدى لها خليفة المسلمين، ومنها:

1. بعد اغتيال الخليفة الثالث عثمان بن عفان، آلت خلافة الأمّة الإسلامية إلى علي بن أبي طالب، ومن المعتاد أن تبايعه الناس، ومنهم طلحة والزبير، وقد جاءاه إلى داره، فطلباً منه مالاً، وعرض ما عنده، لكنهما طلبا من «بيت المال»، فأبدى لهما الخليفة العذر، لكون أموال بيت الخلافة للمسلمين حتى عرض عليهما سؤال الناس جهاراً، لكنها رفضا، وعندما همّا بالخروج من منزله، سمعت خادمة الإمام أنهما تفوّها بقول مفاده: «والله ما بايعناه بقلوبنا، وإن كنّا بايعناه بألسنتنا». فصار همسهما هذا إلى الإمام، فتلى آية من قول الرحمن: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيدِيهِم فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} (الفتح: 10).

يتضح أننا بصدد اعتراف طلحة والزبير بأن بيعتهما للخليفة الجديد (الرابع) هي بيعة زائفة، لكونها صوتية فارغة غير حقيقية ولا متأتية من إيمان راسخ بمبدأ البيعة الإسلامية. ويبدو أن الخليفة علي بن أبي طالب كان على دراية ووثوق بأن بيعتما زائفة، لكن سوء السريرة فضحهما ليتهامس طلحة وصاحبه بما يكنون للخليفة الجديد من سوء، ويدخل الطرف الثالث "الخادمة" لتكون وسيطاً ناقلاً لما سمعت عن طلحة والزبير في أثناء خروجهما، لتوصله حرفياً إلى سيّدها الحليفة، فكان تأويله لكلامهما ليس بالعتاب، ولا إشهار السيف بوجههما، إنما الاستعانة بآيات الذِّكر الحكيم لتحديد خداع هذين الزائفَين، ونكثهم البيعة التي هي ميثاق الله، فجاءت الآية المذكورة تأويلاً دقيقاً لما فعلاه، ولما أبدته سريرتهما قولاً بنكث البيعة أو العهد (Word) لأمير المؤمنين؛ فالمؤوَّل شفاهاً هو قول طلحة والزبير همساً بينهما، والمؤوّل أو مُذاهن التأويل هو الخليفة الرابع، وهي المُذاهنة التأويليّة التي آلت إلى توليد نصّها الذي يريد أن يقول: إن طلحة والزبير نكَثا بيعتهما، لا سيما أن الآية تضمّنت ملفوظ "يبايعونكَ"، وبالتالي ملفوظ "فَمَنْ نَكَثَ"، وكلاهما - طلحة والزبير - إنما نكث عهد ما تعاهد عليه من ذي قبل.

2. نبقى مع ما فعله طلحة والزبير، فقد كتب الخليفة الرابع إلى المسلمين قائلاً: «وأيّ خطيئة أعظم ممّا أتيا؛ أخرجا زوجة الرسول، صلى الله عليه، من بيتها، وكشفا عنها حجاباً ستره الله عليها، وصانا حلائلهما في بيوتهما، ما أنصفا؛ لا لله، ولا لرسوله، من أنفسهما؛ ثلاثُ خصال مرجعها على الناس في كتاب الله: البغي، والمكر، والنكث، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا **بَغْيُكُمْ** عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (يونس: 23). وقال: {فَمَنْ **نَكَثَ** فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ} (الفتح: 10). وقال: {وَلَا يَحِيقُ **الْمَكْرُ** السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} (فاطر: 43). وقد بغيا علينا، ونكثا بيعتي، ومكرا بي!»[64].

3. وعندما طلب علي بن أبي طالب النجدة من أبي موسى الأشعري (ت 44 هجرية) يومَ كان بالكوفة، راح الرجل يتملّص من الاستجابة حتى قال: "الفرقة القاعدة عن القتال خير الناس"[65]، فكان الأشعري متخاذلاً في نواياه حتى أرسل إليه مالك الأشتر ليكون بالكوفة مع الإمام الحسن بن علي، وعمّار بن ياسر، وقيس ابن سعدة، لكسب ودّ الكوفيين إلى قضية أمير المؤمنين، فكتب لهم عند مسيره من المدينة إلى البصرة: «فإن دار الهجرة تقلّعت بأهلها فانقلعوا منها، وجاشت جيشان المرجل، وكانت فاعلة يوم ما فعلت، وقامت الفتنة الباغية، يطلبون بدم هم سفكوه، وعرض هم شتموه، وحرمة انتهكوها، وأباحوا ما أباحوا، يعتذرون إلى الله دون الناس؛ {يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} (التوبة: 96)»[66].

استنتاجات

1. وضع الرسول محمَّد (ص) ابن عمّه وصهره علي بن أبي طالب في المجال التأويلي برمته مدعوماً بتوجيهات نبويّة غير تلقائية، وإن بدت هكذا، تحثه بقصدية واضحة على مُذاهنة اللاهوت القرآني تفسيراً وتأويلاً، حقيقة ومنهجاً، نظرياً وعملياً بعد أن وجد لدى بن أبي طالب جهوزيّة روحية ونفسية متفردة إزاء الدِّين، فراح الرسول (ص) يحفزه على خوض غمار تجربة التأويل بمسؤولية ليست معرفية - ذهنية فقط إنما موضوعية - وجودية أيضاً، ويهيئوه لذلك روحياً ونفسياً وقيادياً لمَهمة من هذا النوع حتى يقعِّد الحقيقة الربانية على هديٍ منهجي يخوضه بين الناس بحياة ثاقبة ومعيشٍ تاريخاني، ويدعوا ربه إلى أن يوفقه في

64. الحسين أحمد السيد: **الإمام علي وحروب التأويل**، ج 1، ص 587 - 588، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر، بيروت، 2009 سنجد مُعطيات العبارة الأخيرة في هذا النص موجودة في (**نهج البلاغة**)، الخطبة رقم 137، ص 194

65. الحسين أحمد السيد: **الإمام علي وحروب التأويل**، ج 1، ص 598، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر. وانظر: (**تاريخ الطبري**: ج 5، ص 186).

66. الحسين أحمد السيد: **الإمام علي وحروب التأويل**، ج 1، ص 602. نقلاً عن: (الشيخ المفيد: **الجمل**، ص 140). وورد نص الرسالة في (**نهج البلاغة**) مع تغيير طفيف، ومن دون الآية القرآنية المذكورة، وعلى النحو الآتي: «وَاعْلَمُوا أَنَّ دَارَ الْهِجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا، وَجَاشَتْ جَيْشَ الْمِرْجَلِ، وَقَامَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ، فَأَسْرِعُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ، وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». باب الرسائل، ص 363. والرسالة الموجودة في (**شرح نهج البلاغة**) لابن أبي الحديد، والتي تحمل العنوان ذاته، تحت رقم 59، مج 9، ج 17، ص 92، تختلف عن متن الرسالة فوق.

مسعاه ليلهمه مُمكنات ذلك الخوض بمنحى مركَّب البناء من حيث الحقيقة والمنهج، ومن حيث الوجودي والأنطولوجي؛ فالتأويليّة العلويّة المُلهَمة تربّت في الضمّة النبويّة بامتياز لتجيء ثمارها ناضجة يانعة مورقة على الصعيد العملي والميداني. وكان علي بن أبي طالب يعترف بذلك صراحة بأنه تلقّى تعليماً تأويلياً راقياً في البيت النبوي، ما يدل على أنه تحصَّل منذ يفاعته على المعرفة التأويليّة في ذلك البيت فظعن يبني مفاهيمها ويزفها للناس مُذاهنة وعملا.

2. استخدم الرسول محمَّد (ص) تعبير "حروب التأويل"، ما يدل على أنه تعبير نبوي بامتياز، وقاله في واقعة إشهار بين نخبة من صحابته كان منهم علي بن أبي طالب، وفي ذلك رسالة واضحة؛ بل استشراف جلي لما سيواجه صهر النبي (ص) في قادم الأيّام من وقائع منظورة في التاريخ.

3. تعتمد التأويليّة العلويّة على بنية مفاهيمية نقرأها جلية واضحة في نصوص صدرت من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ذاته عبر خطبه ورسائله وأحاديثه ووقائعه تتعلّق بالفكر التأويلي وآلياته لدى الإنسان كالفهم، والفطنة، والبصيرة، والباطن، والظاهر، ووجوه المعنى والدلالة، وشرط تأويل الحكمة بإعمال الفطنة أو "تَبْصِرَةِ الْفِطْنَةِ"، وخطرات الوساوس والشكوك، لكون التأويليّة العلويّة تؤمن بأن تأويل كُل حرفٍ من كتاب الله على وجوه، وهو ما يتطلب قراءات ترجيحية بإزاء الخطاب الْقُرْآني، وغيرها من المفاهيم التي ترتبط بآليات صنعة التأويل، وهي تجربة ارتداها علي بن أبي طالب بامتياز منظور في حياته، حتى عاش التأويل نفسه حياته بثراء.

4. لا تؤمن التأويليّة العلويّة بوساوس الشك والرأي والهوى والمصلحة الشخصية ضيقة الأفق عقيمة الرؤية في مُذاهنة الخطاب الْقُرْآني؛ فهي تأويلية تجعل المقدَّس الْقُرْآني ذلك القائم أمام (Present - at - hand) واقع الإنسان، حيث تجري رحاه بوضوح، وتجعل الإنسان أمام ذاته بإزاء الله، لكن جمرة الدفع الغرائزي الأعمى غالباً ما تذيب متانة البصيرة الإنسيّة نحو ظلام متخبِّط، فكان ما جرى من تحديّات بدت فاتكة المسار. ولذلك، وفي ضوء النصوص والتجارب العلويّة، نجد أنفسنا بإزاء تأويلية تُكسب المقدَّس الدِّيني مؤدّاه التاريخاني (Historically) ضمن حدث واقعي مرئي مسموع، وبالمقابل نراها تأويلية تُعرّي دنس التاريخي فيما أقبلت عليه أهواء (Passions) الكائن البشري من دون تكفير يُذكر؛ لأنهم خرجوا على الإجماع والملّة؛ فالناكث للعهد، والباغي، والماكر خداعًا، تحرّكه غرائزه المادية والأهوائية؛ وكانت غرائز الطمع المادي سبباً في اندلاع الويلات على أمّة الإسلام منذ ذلك التأريخ.

5. يبدو أن ما هو تاريخاني أو المُعاش في الحياة الدُّنيا يتظافر مع المقدَّس الْقُرْآني في سقي شجرة التأويل ما يمكننا من قطف ثمرة المُذاهنة التأويليّة التي جرت في تلك المرحلة وفق ثنائية حقلين دلاليين؛

حقل المقدَّس الْقُرْآَني وحقل المعيش التاريخاني الدّنيوي الزمني المدنَّس الذي عجّ بأخلاقيّات النكث، والمكر، والبغي، والخيانة، والهوى العبثي، والاقتتال الدموي التي لا تتلاءم والقيم الْقُرْآَنية المقدَّسة دينياً، حتى أصبحت المُذاهنة التأويليّة مرئية في كينونة معناها ومبناها، وفي كُل حيّزٍ من شدّة انفعالاتها وشهواتها الأهوائية التي لها تلك التي واجهتها التأويليّة العلويّة بالإيمان النقي، والإرادة الدينية القويمة، والتضحية الباهرة من أجلهما حدَّ الاستشهاد في سبيل الإسلام.

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمَّد إبراهيم، مج 3، مج 5، ج 5 - 6، ج 9 - 10، دار الكتاب العربي، بغداد، الأميرة للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 2007
2. ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث، تحقيق: محمَّد محي الدين الأصفر، المكتب الإسلامي، بيروت، مؤسسة الإشراق، الدوحة، ط 2، 1999
3. أبو جعفر بن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، تحقيق: د. يوسُف البقاعي، ج 4، دار الأضواء، بيروت، ط 2، 1991
4. أبو منصور أحمد الطبرسي: الاحتجاج، ج 2، انتشارات الشريف الرضي، قم، 13809 هجرية.
5. أبو القاسم الخوئي: البيان في تفسير الْقُرْآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط 3، 1974
6. أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي: خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، تحقيق وتخريج: أحمد ميرين البلوشي، مكتبة المعلا، الكويت، 1986
7. برنابي روجرسون: ورثة محمد.. جذور الخلاف السني الشيعي، ترجمة: د. عبد الرحمن الشيخ، تعليق: د. عبد المعطي بيومي، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2015.
8. جلال محمَّد عبد الحميد موسى: نشأة الأشعرية وتطورها، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982
9. الحسكاني: شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، حققه وعلق عليه: محمَّد باقر المحمود، ج 1، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط 2، بيروت، 2010
10. الحسين أحمد السيد: الإمام علي وحروب التأويل، ج 1، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر، بيروت، 2009
11. رودولف أوتو: فكرة القُدسي، ترجمة: جورج خوام البولسي، دار المعارف الحكمية، بيروت، 2010
12. رضي الدين بن طاووس: اليقين في إمرة أمير المؤمنين، المطبعة الحيدرية، النجف، 1950
13. الشريف المرتضى: رسالة المُحكم والمُتشابه، تحقيق وتقديم: عبد الحُسين الغريفي البهبهاني، معهد البحوث الإسلامية، مشهد، 1428 هجرية.
14. القضاعي: دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، مطبوعات جامعة نيويورك، 2013
15. محمَّد بن مسعود بن عياش السلمي الكوفي: تفسير العياشي، تصحيح وتحقيق وتعليق: هاشك الرسولي المحلاتي، ج 1، موقع الحكمة للثقافة الإسلامية.
16. عبد الحليم الجندي: الإمام جعفر الصادق، تحقيق: أحمد جاسم المالكي، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب، طهران، 1382
17. عبد الحليم الجندي: الإمام جعفر الصادق، تحقيق: أحمد جاسم المالكي، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب، طهران، 1382
18. علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، مركز الإشعاع الإسلامي. (نسخة إلكترونية).
19. د. علي سامي النشار: التفكير الفلسفي في الإسلام، ج 3، دار المعارف، القاهرة، ط 7، 1978

20. فريدريك شلايرماخر: عن الدين.. خطابات لمحتقريه من المثقفين، ترجمة: أسامة الشحماني، مراجعة وتقديم: عبد الجبار الرفاعي، دار التنوير، بيروت، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، 2017

21. محمَّد مجتهد شبستري: الهرمنيوطيقا الكتاب والسنة، ترجمة: حيدر نجف، مراجعة: عبد الجبار الرفاعي، دار التنوير، بيروت، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، 2013

22. د. محمَّد كامل أحمد: مفهوم العقل في تفسير المعتزلة للقرآن الكريم، دار النهضة العربية، بيروت، 1983

23. مرسيا إلياد: المقدَّس والدنيوي.. رمزية الطقس والأسطورة، ترجمة: نهاد خياطة، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1978

24. د. نصر حامد أبو زيد: فلسفة التأويل.. دراسة في تأويل الْقُرْآن عند محي الدين بن عربي، دار التنوير ودار الوحدة، بيروت، ط 1، 1983

25. هاشم حتاتة: محمَّد ومعاوية.. التاريخ المجهول، دار رؤية للنشر، القاهرة، 2017

26. اليعقوبي: تأريخ اليعقوبي، دار صادر ودارب بيروت، بيروت، 1960

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2020

جميع الحقوق محفوظة © 2020